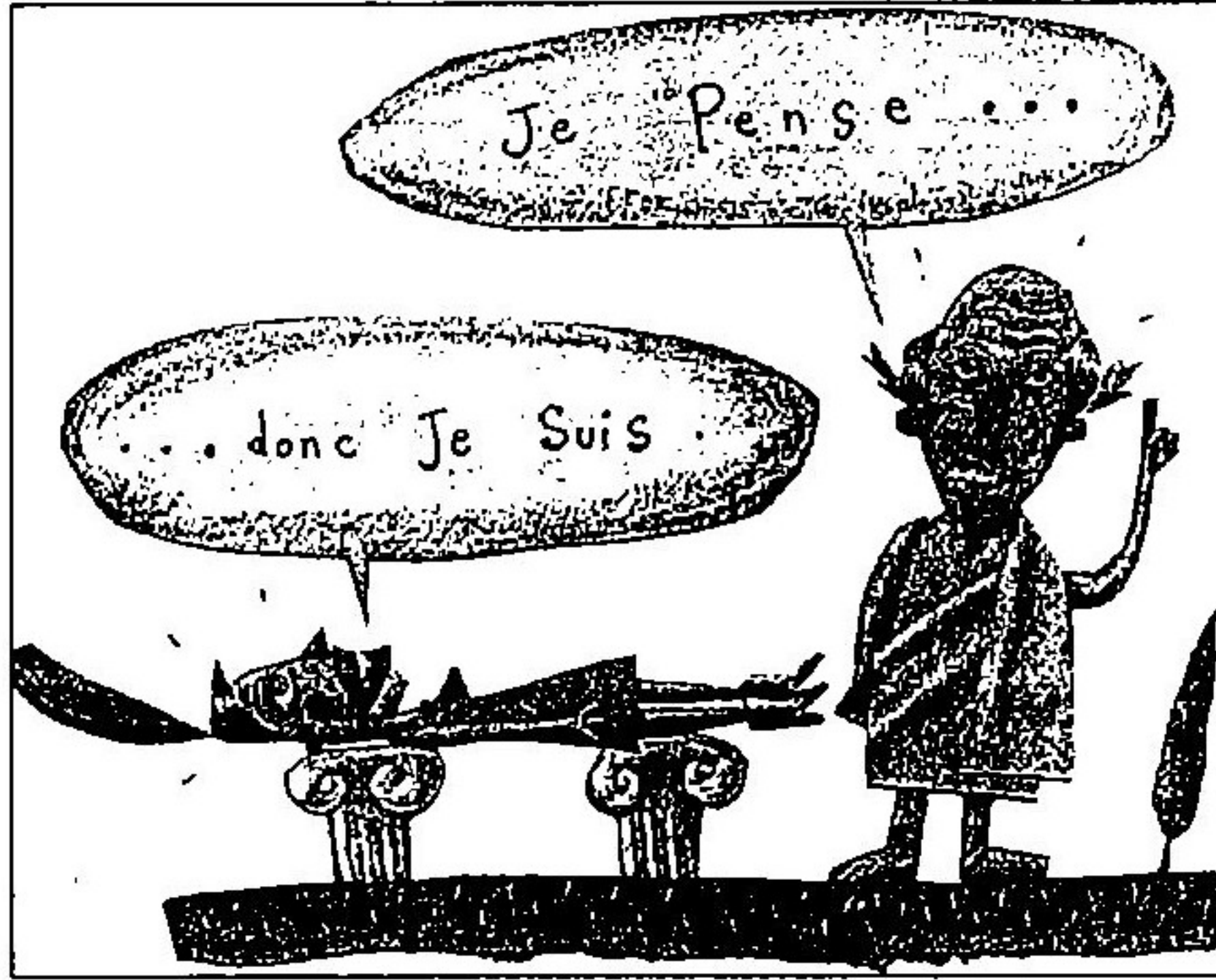


هل تقدم الفلسفة الشفاء؟ ومن هو الفيلسوف المعالج؟

معرفة الذات والبحث عن الحكمة وخلق الإدراك



- أنا أفكر... - ...إن أنا موجود.

هل يمكن الفلسفة أن تشكل وسيلة شفاء؟ بلى، يرد الأميركيون الذين يتحدثون عن تعرفه مالية خاصة بـ "استشارات فلسفية". وكذا يؤكد دنييس ماركيت الذي يمارس تلك "المهنة" عملياً.

فيلسوف معالج (بكسر اللام)؟ تسمية مثيرة للدهشة والاستغراب في صورة عامة. أما في الولايات المتحدة فالأمر بات شبه عادي لأن ثمة فلاسفة معالجين يعملون منذ نحو عشر سنين. وأكثر من هذا، ثمة شركات تأمين تتعاقد مع أولئك "الاطباء" وتغطي تكاليف العلاجات التي يقدمونها! والمعروف أن الأميركيين شعب براغماتي. هل الأمر قابل للتطبيق؟ التجربة وحدها تتكفل بالجواب.

هل تقدم الفلسفة الشفاء؟ قد يبطل العجب حين يعرف المرء أن

افلاطون كان يصنف سقراط بـ "طبيب الروح" ثم، أليست الحكمة التي تتطلع إليها الفلسفة، أليست في الحقيقة أساس الشفاء التام؟ بلى، ربما... لكن ثمة أسئلة شائكة هنا: كيف يمكن أن تشكل الفلسفة عاملاً شافياً؟ هل أن عملية فكرية بحتة ونفسية بحتة كفيلة بعلاج شاف؟ هنا العقدة الجوهرية. يجب الإقرار بأن الفلسفة باتت في الغرب الحديث نشاطاً نظرياً، ذهنياً، لا علاقة مهمة له بالتطبيق الذاتي، وبمسألة الشفاء. وسط ثقافة باتت فيها الكلمة تعني "الانتاج"، اضحى الفيلسوف منتجاً، يفكر النظريات ويبيعها، ثم أن حياة كبار الفلاسفة الحديثين لا تدل على كمال استثنائي أو على فعل شفاء. المفكر الأكبر في القرن العشرين هايدغر كان نازياً. من هنا، أن الحكمة بعيدة جداً جداً...

أذن؟ إذن، أن يكون المرء فيلسوفاً - طبيباً، يعني التأكيد على أنه إذا كانت الحكمة بعيدة عن الفلسفة، فإن الفلسفة تكون، بالتالي بعيدة عن نفسها. لذا حان الوقت لإعادة العمل بتطبيق الفلسفة ضمن البحث عن الحكمة، خطوة للشفاء.

خطوة كهذه ليست "ذهنية"، بل العكس، تتيح احتكاكاً في داخلنا مع لغة أكثر عمقاً من نشاطنا العقلي. تلك اللغة هي الكلمة التي تعبر عنا، الكلمة هي التي منهل الحواس.

ويروي دنييس ماركيت: كريستين التي قصدتني لاستشارات عدة، مرت بالتجربة. أنها في الأربعين. حياتها الاجتماعية تمنحها شعوراً بالرضى، لكنها تكابد احساساً بالوحدة، وبأنها ليست محط الانظار وبأن ليس ثمة من يصفي إليها. اعتمدنا هنا عملية حوار سقراطي، ورويدا رويداً، نشأ السؤال: "من أنا؟". وبدأ البحث: "أنا كذا، وكذا..."، وبدأ الخطاب العقلي... إلا أن التساؤل السقراطي يكشف كل مرة عيوباً وثغرات: "كلا، حتى لو كنت امثال كذا وكذا، فانا لست لا هذا ولا ذاك... فمن أكون؟" وراحت كريستين تطلق تساؤلاتها إلى الأبعد وتضاعف من محاولاتها للاستكشاف حتى ساد صمت: "من أنا؟ لا أعرف... لم اعد أعرف... سأكتفي..." لحظة حاسمة، صمت العقلي لأنه لم يعد يعرف. لحظة مرهقة: تعب هائل من هذا الصمت غير المراد. لحظة ملأى

بالتناقض حيث تبدو الفلسفة مستحيلة في حين أنها تكون بدأت من هنا، وتحديداً من تلك التجربة التي كان افلاطون يدعوها "أحراجاً"، أي الطريق المسدود. عندها، يكون تعبير عن غضب. "كل ذلك غير مفيد، أنا ما أنا، ذاك ما اختبره، و..." أقاطعها: اعذريني، هل يمكننا التوقف لحظات عند ما قلته أخيراً؟ "ما أنا هو ما اختبره..." لكن كريستين حنقت. تلك العبارة تبدو لها الآن عبثية. "حصل الأمر سريعاً"، قالت... سريعاً جداً بالتأكيد. غالباً، لا تعكس أفكارنا - التي نتكلم في داخلنا - حقيقتنا، إنما تعبر عن دفاعنا عن شروطنا، عن جميع "المرافعات" اللازمة لنحمي انفسنا بها ونضمن استمرارنا في الحياة. لكن التساؤل السقراطي يفتح، يكشف، ويدفع إلى كلمة حقيقة، وأن من

شدة التعب أحياناً. "ما أنا هو ما اختبره..."، بالنسبة إلى كريستين، ثمة حقيقة عميقة أكن خفية حتى الآن، تمكنت من الظهور: ما اختبره، أبعثته دائماً عما أنا، إنما... لست سوى ما اختبر. كل ما تبقى لعبة دور، قناع، مظهر... تعلمت كريستين ألا تختبئ عن الآخرين ولا عن ذاتها.

الحقيقة، حقيقتنا، تكمن فينا: تلك هي الامثولة السقراطية. حياتنا لا تعبر دوماً عن حقيقتنا بل عن ضغوط وظروف معينة... ويتكون لدينا انطباع بأن معنى لحياتنا. ما تعالجه الفلسفة هو كل المعاناة الناتجة من ذاك القناع، مهما يكن قاسياً: نقص الإدراك. نعاني لعجزنا عن اكساب حياتنا، بل الحياة، معنى صحيحاً وخصباً لنا. نعاني لأن المعنى الذي تأخذه حياتنا لا يعبر عما نحن عليه، بل عن جملة اوضاع نفسية، اجتماعية - اقتصادية، ثقافية...

لماذا فتح دنييس ماركيت "عيادة فلسفة"؟ يجيب: طالباً، وطأت عالم الفلسفة متطلعاً في جديّة إلى أصل كلمة فلسفة، صديق الحكمة. رأيت إليها مثال تحول داخلي، كمال ذاتي. وتابعت الدراسة الجامعية العالية. واثناء قيامي بالابحاث والدراسات، اصررت على وصف المنطق السقراطي، وعلى اثبات أن حوارات افلاطون - بغض النظر عن كونها اطروحات نظرية - تجسد مجالاً للتطبيق العلاجي. لكن الفلسفة اليوم تمارس كتمرين فكري لا كفعل ذاتي، ولم أجد في الجامعة مكان عيش العقل السقراطي. في الوقت عينه، قادني اهتمامي بالبعد التطبيقي للفلسفة في اتجاه وسائل مستلهمة من الحكمة الشرقية كالطاوية (فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسو الصيني، القرن السادس قبل المسيح) والبوذية، وفي موازاة السعي إلى عمل شخصي على مستوى العلاج النفسي. هذا المسار دفعني إلى إقامة عيادة فلسفية في فينسان Vincennes وترخيم التطبيق الفلسفي، انطلاقاً من منطق مؤسسه، سقراط: "عمل داخلي لمعرفة الذات، بحث عن الحكمة ونشاط لخلق الإدراك".

(بتمرف من "بسيكولوجي" الفرنسية)

حنان عاد

السر الحيت ٩٩/٧/٩٩